موقف ابن عاشور من كتب الأديان من خلال تفسيره التحرير والتنوير

د. مريم محمد إبراهيم الرقيق(*)

المقدمـــــة :

من الأنبياء الذين أنزل الله عليهم كتباً تتلى وقـص أخبـارهم وأحـوالهم علينا موسى عليه السلام من بني إسرائيل (اليهود) وكتابهم التوراة ويسمى العهـد القديم ، وأتباع عيسى عليه السلام من بني إسـرائيل (النصـارى) وكتـابهم الإنجيـل ويسمى العهد الجديد ، وأتباع محمد ﷺ خاتم الأنبيـاء والمرسـلين وكتـابهم القرآن وهم المسلمون ، وما أرسل الله الرسـل وأنـزل الشـرائع إلا لإقامـة نظام البشر كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَـابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[1] ، ولقد جـاء القرآن شاهداً وقيِّماً ومهيمناً على الكتب السالفـة فقال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَاب وَمُهَيْمِناً ﴾[2] ، وتعترف رسـالة الإسـلام بجميـع الديانات السماوية وتحترمها وتعترف بالرسل كافة لقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْـكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[3] وهي رسـالة

(*) عضو هيئة تدريس بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية - كلية التربية / جامعة الزاوية – ليبيا

١ – الحديد : ٢٥.

٢ – المائدة : ٤٨.

٣ – آل عمران : ٣ .

عالمية موجهة لجميع الشعوب وقد نسخت جميع الرسالات قبلها لقول الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1] وتعد من أعظم الشرائع وأقومها كما قال تعالى :﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾[2] .

مصادره من كتب الأديان :

يعرف ابن عاشور[3] الدين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[4] بقوله : " والدين : حقيقته في الأصل الجزاء ، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على مجموع عقائد وأعمال يلقنها رسولٌ من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب ، ثم أطلق على ما يشبه ذلك

---

١ – آل عمران : ٨٥ .

٢ – آل عمران : ١٩ .

٣ – هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبدالقادر بن محمد بن عاشور ولد في جمادي الأولى (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) بتونس ، له العديد من المؤلفات منها تفسير التحرير والتنوير ، وكشف المغطى في المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ ، والنظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح ومقاصد الشريعة الاسلامية ، التحق بجوار به سنة (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) . ينظر : تراجم التونسيين ، محمد محفوظ ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٨٤م:٣/٤٠٣ ، ومعجم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر ، عادل نويهض ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٤م : ٢/٥٤١.

٤ – آل عمران : ١٩ .

مما يضعه زعماء الناس من تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من النـاس ، وسـمي الدين دينا لأنه يترقب منه متَّبِعُهُ الجزاءَ عاجلا أو آجلا ، فما من أهل دين إلاّ وهم يترقبون جزاء من رب ذلك الدين " [١] . وأيضاً هو : " ما كلف الله به الأمّة من مجموع العقائد ، والأعمال ، والشرائع ، والنظم " [٢] .

كما عرّفه في موضع آخر بأنه : " مجموع تعاليم يريـد شـارعها أن تصير عادة وخلقا لطائفة من الناس لتبعث فيهم الفضائل والإحسان لأنفسـهم وللناس ... وحيث كانت الأديان الأولى التي تلقاها البشر واردة إلـيهم مـن جانب الله تعالى بطريق الوحي لأفضل الناس من بين الأقوام ، وتلك المعبر عنها بالأديان السماوية ... وقد عرّف العلماء الدين الصحيح بأنه وضع إلهيٌ سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنا وظاهرا " [٣] .

ولاشك في أن ابن عاشور قد ركّز في نقد الأديان علـى نـوعين مـن المصادر ، المصادر التوقيفية وهي القرآن والسنة ويُرى هذا جليا في طريقته في سرد الآيات والأحاديث المختلفـة ، التي تبين فساد جوهر الـدّين فـي العقائد الوثنية وحتى الكتابية منها بعد أن طالها التحريف فأفسد نظمها وحرّف فيها الكلم عن مواضعه .

أما مصادره الأخرى التوفيقية الاجتهادية فهي كثيرة وفي مقدمتها الكتاب المقدس الذي يعد مصدراً مهما كما نلمح ذلك في تفسيره ، فهو يكثـر مـن الإيراد منه، ولا يكتفي بما تداولته كتب التفسير قبله ، وإنما يحرص علـى

---

١ – التحرير والتنوير : ٣/١٨٨-١٨٩ .

٢ – م . ن : ٦/١٠٣ .

٣ – أصول النظام الاجتماعي في الاسلام ، ابن عاشور ، الدار العربية للكتـاب والشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٧م : ص٨-٩ .

الرجوع إلى أسفار التوراة والأناجيل وما كتب حولها من ردود ، والمتتبع لتفسيره يرى أنه قد أكثر من النقل المباشر من أسفار التوراة وأبدى فيها آراء وانتقادات تنم عن سعة إطلاعه وقدرته على التفاعل مع هذا النوع من المصادر فقد اعتمد من أسفار التوراة :

سفر التكوين[١] ، وسفر الخروج[٢] ، وسفر اللاويين[٣] ، وسفر العدد[٤] ، وسفر التثنية[٥] وسفر القضاة[١] ، وسفر صموئيل الأول[٢] ، وسفر

---

١ - التحرير والتنوير : (١/٤٠٨-٤٢٩-٤٣٠-٤٣٢-٤٥٠-٤٥١-٤٧١-٧٢٣) ، (٢/٣٠٦) ، (٣/٢٣٠) (٤/٩-١٥-١٥٨-١٦٠) ، (٥/٢٤٦) ، (٧/٣١١-٣١٢-٤٠٨) ، (٨/٢٣٠) ، (١٢/٢٢٥-٢٢٧-٢٣٥-٢٨٢) (١٣/١٣) (١٤/١٦) ، (١٥/١٦-١٩٧) ، (١٦/١٣١) ، (١٧/٩٤) ، (١٨/٣٦) ، (٢٠/١٩١-٢٢٣) ، (٢١/٧٤) ، (٢٣/١٥٨-١٥٩-١٦٠) ، (٢٤/٢٤٦) ، (٢٦/٣٢٥-٣٥٧) (٢٨/٢٢١-٢٢٢-٣٧٤) .

٢ - م . ن : (١/٤٤٩-٥٠٩-٥١٨-٥٤١) ،(٢/٦٨-١٤٣) ، (٣/١٩٢-١٩٣) ، (٦/٦١) ، (٩/٥٣-٧٢ ٧٤-٨٧-٩٦-٩٧-٩٨-١٠٢-١١٥-١٢٢-١٢٣-١٢٤-١٤٣-١٩٣) ،(١١/٢٦٥) ،(١٣/١٩٣) ،(١٦/ ١٩٤ -٢٠٠-٢١٤-٢١٨-٢٢٤-٢٧٤-٢٨١-٢٨٥) ،(١٩/ ١١) ،(٢٠/٩٠-٩٥-١٠٠-١٠٨-١١١) .

٣ - م . ن : (١/٦٣٢-٦٣٦) ، (٢/٣٣٩-٣٦٤) ، (٣/٢٥١) ، (٤/١٨٥) ، (٧/١٠٣) ، (١٣/١٩٣) .

٤ - م. ن : (١/٥٠٩-) ، (٦/١٠٣-١٦١-١٦٣) ، (٧/١٤٠) ، (٩/١٠٣-١٤٢-١٤٣-١٦٢-١٧٥) ، (٢٠/١٧٥) .

٥ - م . ن : (١/٥٠٦-٥٤١-٥٤٦-٦٣٢-٦٣٦-٦٨٤) ، (٢/٦٨) ، (٣/٢٨٨) ، (٤/٢٧٤) ، (٦/٢٨-١٥٦) ، (٨/١٤٢) ، (٩/١٠٢-١٢٤-١٣١-١٥٦-١٦٢) ، (١١/٣٩) ، (٢٧/١٣١) ، (٣٠/٤٧٣) .

صموئيل الثاني[٣] ، وسفر الملوك الأول[٤] ، وسفر الملوك الثاني[٥] ، وسفر أخبار الأيام الأول[٦] وسفر أخبار الأيام الثاني[٧] وسفر عزرا[٨] ، وسفر نحميا[٩] ، وسفر المزامير[١٠] ، وسفر الأمثال[١١] ، وسفر الجامعة[١٢] ،

---

١ – م . ن : (٤٩٧/٢) .

٢ – م . ن : (٤٨٨/٢-٤٨٩-٤٩٢-٤٩٧) لايحدد أحيانا هل هو الأول أم الثاني .

٣ – م . ن : (٤٩٢/٢-٤٩٧) ،(٢٤٦/٣) ، (٢٣٩/٢٣) ، (٢٤٤/١٩) لايحدد هل هو الأول أم الثاني .

٤ – م . ن : (٥٨٤/١-٥٨٨-٦٣٠) ، (٩/٢) ، (١٦٢/٩) ، (١٧/١٥) ، (٢٤٤/١٩-٢٧٥) .

٥ – م . ن : (٥٨٤/١-٥٧٨) ، (٢٩٢/٦) ، (٢٨٠/٢٣) لايحدد أحيانا هل هو الأول أم الثاني .

٦ – م . ن : (٥٥٨/١) .

٧ – م . ن : (٥٥٨/١) .

٨ – م . ن : (١٥٩/٩) .

٩ – م . ن : (١٥٩/٩) .

١٠ – م . ن : (٢٩٢/٦) ، (١٣٨/١٥) .

١١ – م . ن : (٣٤/٦) .

١٢ – م . ن : (٣٤/٦) .

وسفر أشعياء[١] ، وسفر أرمياء[٢] ، وسفر مراثي أرمياء[٣] ، وسفر حزقيال[٤] ، وسفر دنيال[٥] وسفر يوشع[٦] ، وسفر يونان[٧] ، وسفر ملاخي[٨] ، وكتاب إيلياء[٩] ، وكتب الأنبياء[١٠] ، وكتاب داود[١١] .

وقد يطلق ابن عاشور على هذه الأسفار في بعض المواضع تاريخ اليهود[١٢] ، كما اعتمد كذلك على بعض شروح التوراة[١٣] ولم يحدد ماهي ولمن تكون .

وبين تعريف التوراة من خلال قوله عز وجل : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[١٤] " والتوراة اسم

---

١ – التحرير والتنوير : (١/٢٤١-٤٥٩-٥٣٠) ، (١٥/٢٨-٣٢) .

٢ – م . ن : (١/٣٧٠-٤٥٩-٥٣٠) ، (١٥/٢٨-٢٩-٣٢-٣٣) .

٣ – م . ن : (١/٣٧٠) .

٤ – م . ن : (١/٢٤١-٤٥٩-٥٢١) ، (٢/٤٧٩) ، (٣/٣٤-٣٥-٣٧) ، (١٥/٢٨) .

٥ – م . ن : (١/٤٥٩-٥٢١) ، (٧/٧٠) ، (١٥/٢٨) .

٦ – م . ن : (٩/١٥٦) ، (١١/٣٩) .

٧ – م . ن : (٢٣/١٧٣) .

٨ – م . ن : (١٥/٢٨-٣٧) .

٩ – م . ن : (٢٣/١٦٩) .

١٠ – م . ن : (١/٤٥٨-٤٥٩-٤٦٢) ، (١٥/٢٨) .

١١ – م . ن : (١/٢٠٨) .

١٢ – م . ن : (١/٤٥٠) ، (٣/٣٥) .

١٣ – م . ن : (١/٤٣٠) .

١٤ – آل عمران : ٣ .

للكتاب المنزّل على موسى عليه السلام ، وهو اسم عبراني أصله طورا بمعنى الهدي ، والظاهر أنّه اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي أنزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور ؛ لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى ، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى " [1]

كما حدّد معناها أيضا في الآية الكريمة : ﴿ وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾[2] فيقول: " والمراد بـ (كِتَابٍ مَّسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ) التوراة كلها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح ، وضمنها كل ما أوحي الله إليه مما أمر بتبليغه في مدة حياته إلى ساعات قليلة قبل وفاته ، وهي الأسفار الأربعة المعروفة عند اليهود : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر العدد ، وسفر التثنية " [3] .

وفي ترتيب هذه الكتب يقول : " عقبت كتاب التكوين بكتاب الخروج أي وصف أحوال بني إسرائيل في مدة فرعون ثم بعثة موسى وقد اقتصر مما في سفر التكوين على ذكر خلق آدم وإسكانه الأرض لأنه موضع العبرة وانتقل من ذلك إلى أحوال بني إسرائيل لأن فيها عبراً جمة لهم وللأمة " [4] .

أما فيما تتضمنه هذه الكتب فإنه يقول عند تفسير الآية الكريمة : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾[5] " والمراد بالتوراة ماتشتمل

---

١ – التحرير والتنوير : ٣/١٤٨-١٤٩ .

٢ – الطور : ١-٣ .

٣ – التحرير والتنوير : ٢٧/٣٧ .

٤ – م . ن : ١/٤٤٩ .

٥ – القصص : ٤٩ .

عليه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى موسى من كلام الله إلى موسى أو من إسناد موسى أمراً إلى الله لا كل ماشتملت عليه تلك الأسفار فإن فيها قصصا وحوادث ماهي من كلام الله ، فيقال للمصحف هو كلام الله بالتحقيق ولايقال لأسفار العهدين كلام الله إلا على التغليب إذ لم يدع ذلك المرسلان بكتابي العهد " [1]

كما أنه في مواضع أخرى من تفسيره أضاف إليها سفر الملوك فتكون أسفار التوراة خمسة بدلا من أربعة ، وقد نص على ذلك بقوله : " فلا تجد في أسفار التوراة الخمسة " [2]

وينعتها أيضاً " بالأسفار الخمسة الأصلية من التوراة " [3] . ومعنى هذا أن غيرها من الأسفار تابع لها في الإطلاق تغليبا .

والمقصود بالعهدين في كلامه السابق ، العهد القديم الذي يضم تسعة وثلاثين سفرا من أسفار التوراة ، والعهد الجديد الذي يضم سبعة وعشرين سفرا من الأناجيل ، والكل يسمى عندهم بالكتاب المقدس [4].

---

١ – التحرير والتنوير : ١٣٩/٢٠ .

٢ – م . ن : ٩/٢ .

٣ – م . ن : ٥٥/٢٢ .

٤ – اعتمد ابن عاشور في تفسيره النص العربي المترجم عن العبرانية والكلدانية واليونانية وهي نسخة جمعت العهدين القديم والجديد عن دار الكتاب المقدس بالعالم العربي (د . ت) . " الكتاب المقدس اليهودي هو بالواقع كتاب تاريخ يشمل فترة لاتقل عن ألفي سنة سبقت الميلاد ونشوء المسيحية ، ومؤلفوه مجهولون في أغلب الأحيان وهم موضوع تخمين يفتقد إلى التوثيق الأكيد والنهائي ، وقد حرر في معظمه بعد سنوات = =عديدة قد تبلغ مئات السنين ، بعد وقوع الأحداث

وفي سبب تسمية التوراة بالعهد في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[1] ، يقول : " ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لايعرفه إلا علماؤهم وهو أشح به منهم في كل شيء بحيث لايعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين ... ، والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم "[2]

وقد حدد ابن عاشور كتب الأنبياء الأخرى في بيان معنى قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ ﴾[3] ، يقول : " والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل كالزبور وكتاب أشعياء ، وأرمياء ، وحزقيال ، ودانيال وغيرها ، ولذا اختير التعبير بما معكم دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا لأن في كتب الأنبياء بعد موسى عليه السلام بشارات ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم أصرحُ مما في التوراة فكان التنبيه إليها أوقع "[4] .

الموصوفة فيه " التوراة بين الوثنية والتوحيد ، سهيل ديب دار النفائس ، ط١ ،١٩٨١م :ص٤ .

١ – البقرة : ٤٠ .

٢ – التحرير والتنوير : ٤٥٣/١ .

٣ – البقرة : ٤١ .

٤ – التحرير والتنوير : ٤٥٨/١-٤٥٩ .

ويوضّح معنى الكتاب في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ ﴾ [1] ، " ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية فتعريف الكتاب تعريف الجنس وليس تعريف العهد الذكري ، إذ ليس هو الكتاب المذكور آنفا في قوله ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ ﴾ [2] ، لأنه لمّا أظهر اسم الكتاب أشعر بأنّه كتاب آخر من كتبهم ، وهو الأسفار المسماة بكتب الأنبياء : أشعياء ، وأرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، وهي في الدرجة الثانية من التوراة وكذلك كتاب النبي ملاخي " [3] .

كما اعتمد من أسفار العهد الجديد أي الأناجيل [4] ، إنجيل متى [5] ، وإنجيل لوقا [6] ، وإنجيل يوحنا [1] ، وإنجيل برنابي [2] ، وإنجيل

---

١ – الاسراء : ٤ .

٢ – الاسراء : ٢ .

٣ – التحرير والتنوير : ٢٨/١٥ .

٤ – " الأناجيل هي أربعة كتب دينية تتصدر كتاب العهد الجديد الذي يعتبر مصدر العقيدة المسيحية ، والذي يحتوي على سبعة وعشرين كتابا ، وهذه الأناجيل تعتبر أعظم كتب العهد الجديد على الإطلاق ، وكلمة إنجيل تعني البشارة أو الأخبار السارة ، والأناجيل الأربعة هي إنجيل متى ، إنجيل مرقس ، إنجيل لوقا ، إنجيل يوحنا " . حول موثوقية الأناجيل والتوراة ،محمد السعدي، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط١، ١٠٨٦م :ص١١-١٢.

٥ – التحرير والتنوير : (٦٨٤/١) ، (٢٥٢/٣) ، (١٤/٦-١٥٦) ، (١١/٧-٧٠) ، (١٣٤/٩) ، (٢٨١/١٦) (١٩١/١٩) ، (٣٧/٢٧) ، (١٨٥/٢٨) ، (٤٧٤/٣٠).

٦ – م . ن : (٢٣٤/٣-٢٣٩-٢٤٢-٢٤٣) ، (٢٨٦/٦) ، (٣٩/١١) ، (٢٨١/١٦) .

مرقس[٣] ، وسفر أعمال الرسل[٤] . كما أحال على رسالة بولس[٥] التي كتبها إلى أهل مدينة (أفسس) باليونان .

فعند تعريفه للإنجيل في قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[٦] ، يقول : " وأما الإنجيل فاسم للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه ، وهو اسم معرّب قيل من الرومية وأصله (إِثَانْجَيْلِيُومْ) أي الخبر الطيب ، فمدلوله مدلول اسم الجنس ، ولذلك أدخلوا عليه كلمة التعريف في اللغة الرومية فلمّا عرّبه العرب أدخلوا عليه حرف التعريف ، وذكر القرطبي عن الثعلبي أن الإنجيل في السريانية – وهي الآرامية – (انكليون) ولعل الثعلبي اشتبه عليه الرومية بالسريانية ، لأن هذه الكلمة ليست سريانية وإنما نطق بها نصارى العراق ظنّها سريانية "[٧]

أما تعريفه لأهل الكتاب في قوله تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

---

١ – م . ن : (٦/٥٢-٥٣) ، (٧/١١) ، (٩/١٣٤) ، (١٩/١٩١) ، (٢٨/١٨٤-١٨٥) ، (٣٠/٤٧٣) .

٢ – م . ن : (٦/٢١-٢٢) .

٣ – م . ن : (٧/٧٠) ، (١٥/٣٧) .

٤ – م . ن : (٢٢/٣٥٩-٣٦٠) .

٥ – م . ن : (١٥/٢٦١) .

٦ – آل عمران : ٣ .

٧ – التحرير والتنوير : ٣/١٤٨-١٤٩ .

الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [1]، يقول :" اسم (أَهْلُ الكِتَابِ) لقب في القرآن لليهود والنصارى الذين لم يتدينوا بالإسلام ؛ لأن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل إذا أضيف إليه (أهل) ، فلا يطلق على المسلمين أهل الكتاب ، وإن كان لهم كتاب ، فمن صار مسلما من اليهود والنصارى لا يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن " [2] .

وأما الزبور فقد أحال عليه في تفسيره ضمن أسفار العهد القديم وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير . ففي تعريف الزبر في قوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾[3] ، يقول : " والزبر جمع زبور وهو فَعول بمعنى مفعول مثل رسول ، أي مزبور بمعنى مخطوط ، وقد قيل : إنه مأخوذ من زَبَر إذا زَجر أوْ حبَس لأنّ الكتاب يقصد للحكم ، وأريد بالزبر كتب الأنبياء والرسل ، مما يتضمن مواعظ وتذكيرا مثل كتاب داوود والإنجيل ، والمراد بالكتاب المنير: إن كان التعريف للجنس فهو كتب الشرائع مثل التوراة والإنجيل ، وإن كان للعهد فهو التوراة " [4] .

وفي تعريفه للزبور أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾[5] ، يقول : " وداود أبُو سليمان هو داود بن يسي توفي سنة ١٦٢٦قبل الهجرة ، بعثه الله لنصر بني إسرائيل ، وأنزل عليه كتابا فيه مواعظ وأمثال

---

١ – الحديد : ٢٩ .

٢ – التحرير والتنوير : ٢٧/٤٢٩-٤٣٠ .

٣ – آل عمران : ١٨٤ .

٤ – التحرير والتنوير : ٤/١٨٦ .

٥ – النساء :١٦٥ .

، كان بنو إسرائيل يترنّمون بفصوله وهو المسمى بالزبور ، وهو مصدر على وزن فعول مثل قَبول ويقال فيه : زُبور – بضم الزاي – أي مصدرا مثل الشُّكور ، ومعناه الكتابة ويسمى المكتوب زَبورا فيجمع على الزّبر ، قال تعالى : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ وقد صار علما بالغلبة في لغة العرب على كتاب داود النبئ ، وهو أحد أسفار الكتاب المقدس عند اليهود " [1] .

وهو عنده أيضا : " اسم لمجموع أقوال داوود –عليه السلام– التي بعضها مما أوحاه إليه وبعضها مما ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم " [2] .

كما ينقل عن موسوعة لاروس الفرنسية[3] ، ودائرة المعارف العربية[4] ، وكتب بطرس

البستاني[5] ، وأقوال اللاهوتيين الغربيين[6] ، وبعض الكتب التي ألفها من ارتدوا عن اليهودية أو المسيحية ودخلوا في الإسلام منها كتاب الحسام

---

١ – التحرير والتنوير : ٦/٣٤-٣٥ ، وينظر أيضا : ٢٧/٢٢٣ .
٢ – م . ن : ١٥/١٣٨ ، وينظر أيضا : ١٧/١٦٢-١٦٣ .
٣ – م . ن : (١/٥٣٣-٦٢٧) .
٤ – م . ن : (١/٤٠٨) .
٥ – التحرير والتنوير : (١/٦٢٧) .
٦ – م . ن : (١/٥٧٨) .

الممدود في الرد على اليهود[1]، وكتاب غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود[2].

ولايفوته في هذا الصدد الرجوع إلى الموسوعات المعاصرة والإفادة مما قررته ، مع تعقبه لما جاء فيها مما يراه مخالفا للحقائق والأحداث ، كما يهتم بالتعرض لباقي العقائد الأخرى مثل المانوية والمزدكية وغيرها من الأساطير الفارسية القديمة .

- تعامله مع مصادره :

اتضح أن ابن عاشور في نقله المباشر من المصادر لا يسير على أسلوب واحد وإنما يتبع أساليب مختلفة في ذكرها ، وفي حجم اقتباس النصوص منها ، وهذا يرجع لاختلاف الموضوع ومدى مناسبته لموضوع الآية المتناولة وبحسب ما يلائم الموقف .

أما موقفه مما ينقله فلم يكن ابن عاشور مجرد ناقل أو متتبع للآراء فقط ، بل كان ينقل في تمحيص وتدقيق ، ويقف متأنيا في مناقشته التي تتسم بالجدية ، والموضوعية ، والفهم القائم على الدليل ، فأثناء عرضه لقضية ما أو مناقشة فكرة ، يبادر بالتوضيح والإشارة إلى مصدر هذه القضية أو هذه الفكرة لآرائه اتضح أن له عدة مواقف مما ينقله منها :

- أنه يربط القرآن بما ينقله من التوراة والإنجيل : فعلى سبيل المثال عند بيانه لآية القصاص في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ

---

١ - لعبدالحق الاسلامي السبتي وقد ذكره مرتين : ٤٣١/١، ٧٢٣ وذكر أنه أسلم هو وأولاده وأهله في سبتة وكان موجود بها سنة ٧٦٣هـ .

٢ - للحبر الأندلسي السموأل بن يحيى اليهودي الذي أسلم بسبب الآية ١٥٧ في سورة الأعراف كما يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية : ١٣٢/٩ .

بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [1] ، يقول : " ولما كانت مشروعية القصاص كافية في تحقيق مقصد الشريعة في شرع القصاص من ازدجار الناس عن قتل النفوس ، وتحقيق حفظ حق المقتول بكون الخيرة للولي كان الإذن في العفو إن تراضيا عليه رحمةً من الله بالجانبين ، فالعدل مقدم والرحمة تأتي بعده ، قيل : إن الآية أشارت إلى ما كان في الشريعة الإسرائيلية من تعيين القصاص من قاتل العمد دون العفو ودون الدية كما ذكره كثير من المفسرين ، وهو ظاهر مافي سفر الخروج الإصحاح الثالث ((من ضَرب إنسانا فمات يقتل قتلا ولكن الذي لم يتعمد بل أوقع الله في يده فأنا أجعل لك مكانا يُهرَب إليه وإذا بغى
إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عندِ مذبحي تأخذه للموت)) " [2] .

ومنه أيضا عند تفسير الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ، إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [3] ، يقول : " والمعنى : نبعث عليكم عبادًا لنا فيجوسون ونردّ لكم الكرة عليهم ونمددكم بأموال وبنين ونجعلكم أكثر نفيرا ... والوعد بهذا النصر ورد أيضا في كتاب أشعياء في الإصحاحات : العاشر ، والحادي عشر، والثاني عشر وغيرها ، وفي كتاب أرميا في الإصحاح الثامن والعشرين والإصحاح التاسع والعشرين ، وقوله: ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ هو من جملة المقضي الموعود به ، ووقع في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرميا ((هكذا قال الرّب إله إسرائيل

---

١ – البقرة : ١٧٨ .

٢ – التحرير والتنوير : ١٤٣/٢ .

٣ – الاسراء : ٦-٧ .

لكلّ السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل : ابنوا بيوتا واسكنوا ، واغرسوا جنات وكلوا ثمرها ، خذوا نساء ولِدُوا بنين وبنات ، وأكثروا هناك ولاتقلُّوا)) " [1] .

ويربط بقية الآية بما يوافقه في كتاب أرمياء فيقول : " وقوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُم وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ من جملة المقضي في الكتاب مما خوطب به بنو إسرائيل ، وهو حكاية لما في الإصحاح التاسع والعشرين من كتاب أرميا ((وصلُّوا لأجلها إلى الربّ لأنه بسلامها يكون لكم سلام)) ، وفي الإصحاح الحادي والثلاثين ((يقول الرب أزرعُ بيت إسرائيل وبيت يهوذا ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقَرض والإهلاك ، كذلك أسْهَر عليهم للبناء والغرس في تلك الأيام لا يقولون : الآباء أكلوا حصرِماً وأسنان الأبناء ضَرِستْ بل كل واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحِصرِم تَضرِس أسنانُه " [2] .

ويوضح معناها قائلا : " ومعنى ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُم ﴾ أننا نردّ لكم الكرة لأجل التوبة وتجدد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمة ، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنا وإن أسأتم لأنفسكم ، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير مَن قبلكم " [3] .

وفي تأكيد ذكر القرآن وروده في كتب الأنبياء الأولين في قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ، أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن

---

١ – التحرير والتنوير : ٣٢/١٥ .

٢ – م . ن : ٣٣/١٥ .

٣ – التحرير والتنوير : ٣٣/١٥ .

يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [1] ، يقول ابن عاشور : " وقوله ﴿ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ أي كتب الرسل السالفين ، أي أن القرآن كائن في كتب الأنبياء السالفين مثل التوراة والإنجيل والزبور ... فالمعنى أن ذكر القرآن وارد في كتب الأولين ، أي جاءت بشارات بمحمد ﷺ وأنه رسول يجيء بكتاب . ففي سفر التثنية من كتب موسى عليه السلام في الإصحاح الثامن عشر قول موسى ((قال لي الرب : أقيم لهم نبيئا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)) إذ لاشك أن إخوة بني إسرائيل هم العرب كما ورد في سفر التكوين في الإصحاح السادس عشر عند ذكر الحمل بإسماعيل ((وأمام جميع إخوته يسكن)) أي لا يسكن معهم ولكن قُبالتهم . ولم يأت نبيء بوحي مثل موسى بشرع كشرع موسى غير محمد ﷺ ، وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن الموحَى به إليه وهو يتلوه " [2] .

كما يستشهد بإنجيل متى على ذكر الرسول ﷺ فيقول : " وفي إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين قال عيسى عليه السلام ((ويقوم أنبياء كذَبةٌ كثيرون ويُضلون كثيرا ... ولكن الذي يَصبر إلى المنتهَى [أي يدوم إلى آخر الدهر أي دينه إذ لا خلود للأشخاص] فهذا يخلص ويكْرَز [أي يدعو] ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة (أي الأرض المأهولة) شهادةً لجميع الأمم [رسالة عامة] ثم يأتي المنتهى [أي نهاية العالم])) ، فالبشارة هي الوحي

---

[1] – الشعراء : ١٩٦-١٩٧ .

[2] – التحرير والتنوير : ١٩١/١٩ .

وهو القرآن وهو الكتاب الذي دعا جميع الأمم قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1] " [2] .

ويستشهد أيضاً بما ورد في إنجيل يوحنا فيقول : " وفي إنجيل يوحنا قول المسيح الإصحاح الرابع عشر ((وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزيا [أي رسولا] آخرَ ليمكث معكم إلى الأبد [هذا هو دوام الشريعة] روحُ الحق الذي لايستطيع العالم أن يقبله [إشارة إلى تكذيب المكذبين] لأنه لايراه ولايعرفه)) ثم قال : ((وأما المعزي الروحُ القدس الذي سيرسله الأبُ باسمي [أي بوصف الرسالة] فهو يُعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قُلته لكم [وهذا التعليم لكل شيء هو القرآن مافرطنا في الكتاب من شيء)) " [3] .

- يرد على مانقله بالنقد :

نقل ابن عاشور كثيرا عن التوراة وأسفارها الخمسة ، وبيّن مافي ذلك من تحريف ، وتأويل وسوء فهم ، ففي قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾[4] ، يقول ابن عاشور : " وقد اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث كما اتفقوا على ما قبلها ، فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله ... وقوله ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ جاء بلفظ اتخذ تعريضاً بالاستهزاء بهم بأن كلامهم لا يلتئم لأنهم أثبتوا ولدا لله ويقولون اتخذه الله ، ... وأصل هذه المقالة بالنسبة للمشركين ناشئ عن جهالة وبالنسبة لأهل

---

١ – ابراهيم : ١ .

٢ – التحرير والتنوير : ١٩/١٩١ .

٣ – التحرير والتنوير : ١٩/١٩١-١٩٢ .

٤ – البقرة : ١١٦ .

الكتابين ناشئ عن توغلهما في سوء فهم الدين حتى توهموا التشبيهات والمجازات حقائق ، فقد ورد وصف الصالحين بأنهم أبناء الله على طريقة التشبيه ، وورد في كتاب النصارى وصف الله تعالى بأنه أبو عيسى وأبو الأمة فتلقفته عقول لا تعرف التأويل ولا تؤيد اعتقادها بواضح الدليل فظنته على حقيقته " [1] .

ثم استشهد بنصوص من التوراة والإنجيل فقال : " جاء في التوراة في الإصحاح ١٤ من سفر التثنية ((أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسادكم)) وفي إنجيل متى الإصحاح ٥ ((طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدْعَون)) وفيه ((وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات)) وفي الإصحاح ٦ ((أنظروا إلى طيور السماء إنها لاتزرع ولاتحصد ولاتجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها)) " [2] .

وختم رأيه بقوله : " وتكرر ذلك في الأناجيل غير مرة ففهموها بسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول الديانة التي توجب تأويلها ألا ترى أن المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبينوا دليلها " [3] .

وفي تعيين موضع الجنة في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[4] ، عرّف ابن عاشور الجنة

---

١ – التحرير والتنوير : ٦٨٤/١ .

٢ – م . ن : ٦٨٤/١ .

٣ – م . ن : ٦٨٤/١ .

٤ – البقرة : ٣٥ .

ورأى أن علماء المسلمين قد اختلفوا في تعيين مكانها وذكر مجموعة آراء منها قال : " وأحسب أن هذا ناشئ عن تطلبهم تعيين المكان الذي ذكر مايسمى في التوراة باسم عَدْن ففي التوراة في الإصحاح الثاني من سفر التكوين ((وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عَدْن ليعلمها ويحفظها -ثم قالت- فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها)) وهذا يقتضي أن جنة عَدْن ليست في الأرض وهو ظاهر وصف نهر هذه الجنة الذي يسقيها بأنه نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس اسم الواحد (فيشون) وهو المحيط بجميع أرض الحويلة وهم من بني كوش كما في الإصحاح من التكوين واسم النهر الثاني (جَيحون) وهو المحيط بجميع أرض كوش ، واسم النهر الثالث (حِدّا قِل) وهو الجاري شرق أشور (دجلة) والنهر الرابع (الفُرات) ولم أقف على ضبط عَدن هذه "[1] .

وفي قصة العجل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ، قَالَ هُمْ أُوْلاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ، قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾[2] يقول ابن عاشور : " وأعلم أن السامريين لقب لطائفة من اليهود يقال لهم أيضاً السامرة ، لهم مذهب خاص مخالف لمذهب جماعة اليهودية في أصول الدين ، فهم لايعظمون بيت المقدس وينكرون نبوءة أنبياء بني إسرائيل عدا موسى وهارون ويوشع ، وماكانت هذه الشذوذات فيهم إلا من بقايا تعاليم الإلحاد التي كانوا يتلقونها في مدينة السامرة المبنية على التساهل والاستخفاف بأصول الدين والترخيص في

---

١ – التحرير والتنوير : ٤٣٠/١ .

٢ – طه : ٨٣-٨٥ .

تعظيم آلهة جيرتهم الكنعانيين أصْهار ملوكهم ، ودام ذلك الشذوذ فيهم إلى زمن عيسى-عليه السلام- " [1] .

ويضيف مستشهدا بالإنجيل والتوراة ومبديا رأيه فيقول : " ففي إنجيل متى إصحاح ١٠ وفي إنجيل لوقا إصحاح ٩ مايقضي أن بلدة السامريين كانت منحرفة على إتباع المسيح ، وأنه نهى الحواريين عن دخول مدينتهم ، ووقعت في كتاب الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين زلّة كبرى ، إذ زعموا أنّ هارون صنع العجل لهم لمّا قالوا له : ((اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأنا لا نعلم ماذا أصاب موسى في الجبل فصنع لهم عجلا من ذهب)) . وأحسب أنّ هذا من آثار تلاشي التوراة الأصلية بعد الأسر البابلي ، وأن الذي أعاد كتابتها لم يحسن تحرير هذه القصة ، ومما نقطع به أنّ هارون معصوم من ذلك لأنه رسول " [2] .

وفي تعيين الذبيح من ولدي إبراهيم واختلاف المسلمين وأهل الكتاب لعدم تحديده في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [3] ، بعد أن عدّد ابن عاشور الشواهد والأدلة القاطعة على أن الذبيح هو إسماعيل قال : " قلت : أرى أن مافي سفر التكوين نُقِل مشتتا غير مرتبة فيه أزمان الحوادث بضبط يعين الزمن بين الذبح وأخبار إبراهيم ، فلما نقَل النقلة التوراة بعد ذهاب أصلها عقب أسر بني إسرائيل في بلاد أشور زمن بختنصر ، سجلت قضية لذبيح في جملة

---

١ - التحرير والتنوير : ١٦/٢٨٠-٢٨١ .

٢ - التحرير والتنوير : ١٦/٢٨١ .

٣ - الصافات : ٣-٧ .

أحوال إبراهيم -عليه السلام- وأدمج فيها ما اعتقده بنو إسرائيل في غربتهم من ظنهم الذبيح إسحاق . ويدل لذلك قول الإصحاح الثاني والعشرين ((وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال خذ ابنك وحيدك)) الخ ؛ فهل المراد من قولها : بعد هذه الأمور ، بعد جميع الأمور المتقدمة أو بعد بعض ما تقدم " [1] .

- رده على اعتقادات النصارى :

وهذا يستلزم النظر في الآيات التي تتعلق بالموضوع وكيفية تفسيره لها ، وما استخرج منها من أدلة وردود ، فمثلاً يتجه ابن عاشور إلى إبطال ألوهية عيسى عند بيان معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ، الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ ﴾ [2] ، فيقول : " بُين به مانشأ من الأوهام عند النصارى ، عن وصف عيسى بأنه كلمة من الله ، فَضلوا بتوهم أن ليس خالص الناسوت . وهذا شروع في إبطال عقيدة النصارى من تأليه عيسى ، ورد مطاعنهم في الإسلام وهو أقطع دليل بطريق الإلزام ؛ لأنهم قالوا بإلاهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمة من الله وليس له أب ، فقالوا : هو ابن الله ، فأراهم الله أنّ آدم أولى بأن يُدّعَى له ذلك ، فإذا لم يكن آدم إلاها مع أنه خلق بدون أبوين فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم ، ومحل التمثيل كون كليهما خُلق من دون أب ، ويزيد آدم بكونه من دون أم أيضاً " [3] .

---

١ – التحرير والتنوير : ١٦٠/٢٣ .

٢ – آل عمران : ٥٩-٦٠ .

٣ – التحرير والتنوير : ٢٦٣/٣ .

ويرى أن آدم الذي خلق من تراب ، أو عيسى الذي خلق من دون أب ، فإن كليهما خلق بكلمة (كن) فيضيف قائلاً : " وقول كن تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه حيا ذا روح ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع يد ، ولا نحتٍ بآلة ، ولكنه بإرادةٍ وتَعَلق قدرة وتسخير الكائنات التي لها أثر في تكوين المراد " [1] .

ويلاحظ عليه أنه يستعمل أساليب العربية في محاجة النصارى والرد عليهم ، فهو يؤكد على أن سبب الانحراف في معتقداتهم هو الغلو ففي قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [2] ، يقول : " والغلوّ : تجاوز الحد المألوف ، مشتق من غَلْوة السهم ، وهي منتهى اندفاعه ، واستُعير على المطلوب من المعقول ، أو المشروع في المعتقدات ، والإدراكات والأفعال ، والغلوّ في الدين أن يُظهر المتديّن مايفوت الحدّ الذي حدّد له الدين ، ونهاهم عن الغلو لأنه أصل لكثير من ضلالهم وتكذيبهم للرسل الصادقين ، وغلو أهل الكتاب تجاوزهم الحد الذي طلبه دينهم منهم : فاليهود طولبوا بإتباع التوراة ومحبة رسولهم ، فتجاوزوه إلى بغضة الرسل كعيسى ومحمد -عليهما السلام-، والنصارى طولبوا بإتباع المسيح فتجاوزوا فيه الحد إلى دعوى إلهيته أو كونه ابن الله ، مع الكفر بمحمد ﷺ " [3] .

---

[1] – التحرير والتنوير : ٣/٢٦٣ .

[2] – النساء : ١٧١ .

[3] – التحرير والتنوير : ٦/٥٠-٥١ .

ويذهب ابن عاشور من خلال هذه الآية إلى الحديث عن صفات عيسى الرسول فيقول : " وقد أفادت الجملة قصر المسيح على صفات ثلاث : صفة الرسالة ، وصفة كونه كلمة ألقيت إلى مريم ، وصفة كونه روحا من عند الله . فالقصر قصر موصوف على صفة ، والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه علوّهم في هذه الصفات غلوا أخرجها عن كنهها ، فإن هذه الصفات ثابتة لعيسى ، وهم مثبتون لها فلا يُنكر عليهم وصف عيسى بها ، لكنّهم تجاوزوا الحد المحدود لها فجعلوا الرسالة البُنوة ، وجعلوا الكلمة اتحاد حقيقة الإلهية بعيسى في بطن مريم فجعلوا عيسى ابنا لله ومريم صاحبة لله – سبحانه– ، وجعلوا معنى الروح على مابه تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهية " [1] .

وفي تفسيره لمعنى (الكلمة) فإنه يرجع إلى الأناجيل وقد أقر الله تعالى هذا الوصف

فيقول : " ووصف المسيح بأنه كلمة الله وصف جاء التعبير به في الأناجيل ؛ ففي صدر إنجيل يوحنا:(في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله– ثم قال – والكلمة صار جسدا وحل بيننا) ، وقد حكاه القرآن وأثبته فدلّ على أنّه من الكلمات الإنجيلية فمعنى ذلك أنّه أثر كلمة الله ، والكلمة هي التكوين ، وهو المعبر عنه في الاصطلاح بـ (كُن) . فإطلاق الكلمة على التكوين مجاز ، وليس هو بكلمة ، ولكنه تعلق القدرة ، ووصف عيسى بذلك لأنّه لم يكن لتكوينه التأثير الظاهر المعروف في تكوين الأجنة ،

---

١ – م . ن : ٦/٥١-٥٢ .

فكان حدوثه بتعلق القدرة ... ومعنى (أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) أوصلها إلى مريم " [1] .

أما في تحديد معنى (الروح) فإنه يرجع إلى العربية والأناجيل أيضاً فيقول : " وقيل : الروح النفخة ، والعرب تسمّي النفس روحا والنفخ روحا ... وتلقيب عيسى بالروح طفحت به الأناجيل " [2] .

ويتساءل : ما السر أو الحكمة في إيراد القرآن لهذين الوصفين (الكلمة والروح) على مافيهما من شبهة ضلت بها النصارى ؟

ويجيب بقوله : " قلت : الحكمة في ذلك أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل ، أو في كلام الحواريّين وصفا لعيسى –عليه السلام– ، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ ، فلما تغيّرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرّب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل ، أي أنّ قصارى ماوقع لديكم من كلام الأناجيل وهو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله ، وليس في شيء من ذلك مايؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله " [3] .

وينقض ابن عاشور قضية التثليث يناقش النصارى في المفاهيم المختلفة التي أعطوها لها وذلك من خلال قوله تعالى مخاطبا النصارى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ ﴾ [4] ، فيقول : " وقوله ﴿ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ﴾ أي لا تنطقوا بهذه الكلمة ، ولعلّها كانت شعاراً للنصارى في

---

١ – التحرير والتنوير : ٥٢/٦ .

٢ – م . ن : ٥٢/٦ –٥٣ .

٣ – م . ن : ٥٣/٦ .

٤ – النساء : ١٧١ .

دينهم ككلمة الشهادة عند المسلمين ، ومن عوائدهم الإشارة إلى التثليث بالأصابع الثلاثة : الإبهام والخنصر والبنصر "[1] .

ويرى أن التثليث أصل في عقيدة النصارى كلهم ، ولكنهم مختلفون في كيفيته ولذلك جاء في القرآن (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف كان حذفه ليصلح لكل مايصلح تقديره من مذاهبهم في التثليث ــ سواء أن الآلهة ثلاثة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾[2] ، أو أن عيسى وأمه إلهين مع الله ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[3] فالمجموع ثلاثة : كل واحد منهم إله ؛ ولكنهم يقولون : إن مجموع الثلاثة إله واحد أو اتحدت الثلاثة فصار إلهاً واحداً[4] .

وفي تطور التثليث يرى التأثير اليوناني على مفهوم التثليث ، حيث أنه نشأ من اعتقاد قدماء الإلهيّين من نصارى اليونان أن الله تعالى (ثالوث) ، أي أنه جوهر واحد ، وهذا الجوهر مجموع ثلاثة أقانيم[5] ، وهذه الأقانيم يتفرع بعضها عن بعض : فالأقنوم الأول أقنوم الذات أو الوجود القديم وهو الأب وهو أصل الموجودات ، والأقنوم الثاني أقنوم العلم ، وهو الابن ، وهو دون الأقنوم الأول ، ومنه كان تدبير جميع القوى العقلية ، والأقنوم الثالث

---

١ – التحرير والتنوير : ٥٤/٦ .

٢ – المائدة : ٧٣ .

٣ – المائدة : ١١٦ .

٤ – ينظر : التحرير والتنوير : ٥٤/٦ .

٥ – الأقانيم : كلمة سريانية الأصل مفردها أقنوم وهي تعني شخص أو كائن مستقل بذاته . ينظر : الله واحد أم ثالوث ، محمد مجدي مرجان ، القاهرة ، دار النهضة العربية : ص٩ .

أقنوم الروح القدس ، وهو صفة الحياة ، وهي دون أقنوم العلم ومنها كـان إيجاد عالم المحسوسات[1]

إذن فمعاني التثليث إذن مختلفة ، فمنهم من يرى أن هناك ثلاثة آلهـة ، ومنهم من يرى أن الثلاثة إله واحد ، ومنهم من يرى أن الله جـوهر واحـد بثلاثة أقانيم .

غير أن ذكرهم ثلاث صفات وإهمالهم صفات أخرى تقتضيها الإلهية ، وأرادوا أن ينبهوا على أن أقنوم الوجود هو مفيض الأقنومين الآخرين، ثم أن النصارى -كما يرى ابن عاشور- فسروا هذه الصفات تفسيرات أخـرى إذ سموا أقنوم العلم بالكلمة لأن من عبارات الإنجيل إطلاق الكلمة على المسيح ، فأرادوا أن المسيح مظهر علم الله ، غير أنهم زادوا غلوا في تقديس المسيح " فتوهموا أن علم الله اتّحد بالمسيح فقالوا : إن المسيح صار ناسوته لاهوتا ، باتحاد أقنوم العلم به ، فالمسيح جوهران وأقنوم واحد ثم نشأت فيهم عقيـدة الحلول ، أي حلوا الله في المسيح بعبارات متنوعة ، ثم اعتقـدوا اتحـاد الله بالمسيح ، فقالوا : الله هو المسيح "[2] .

ثم يورد ابن عاشور الصراع الذي حدث بين راهب اسـمه (آريـوس) وأتباعه الذين قالوا بالتوحيد وأن عيسى عبدالله مخلوق ، وبين دعاة التثليـث خلال القرن الرابع من التاريخ المسيحي ومنهم ملك الروم (قسطنطينوس) وبعض العلماء الذين اتفقوا على " أن كلمـة الله اتحـدت بجسـد عيسـى ، وتقمصت في ناسوته ، أي إنسانيته ، ومازجته امتـزاج الخمـر بالمـاء ، فصارت الكلمة ذاتا في بطن مريم ، وصارت تلك الذات ابنـا لله تعـالى ،

---

[1] – ينظر : التحرير والتنوير : ٥٥/٦ .

[2] – التحرير والتنوير : ٥٦/٦ .

فالإله مجموع ثلاثة أشياء: الأول الأب ذُو الوجود ،والثاني الابن ذُو الكلمة أي العلم ، والثالث روح القدس "[1] .

وبعد ذلك تطورت النصرانية وتشعبت إلى فرق بناء على اختلاف مذاهبهم[2] مع الاتفاق بالقول به .

وفي رد إدعاء النصارى بألوهية المسيح يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3] ، ويقول أيضاً : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] وفي سبيل إثبات هذه المقولة وانصرافها إلى معنى الحلول والاتحاد فإن ابن عاشور يرجع في ذلك إلى العربية ، وإلى صلة المسند بالمسند إليه فيقول : " كان أعظم ضلال النصارى ادّعاؤهم إلهية عيسى ﷺ ... ويفيد قولهم هذا أنهم جعلوا حقيقة الإله الحق المعلوم متحدة بحقيقة عيسى ﷺ بمنزلة اتحاد الاسمين للمسمى الواحد ، ومرادهم امتزاج الحقيقة الإلهية معنونة عند جميع المتديّنين

---

١ – م . ن : ٥٦/٦ .

٢ – انقسموا في بيان اتحاد هذه الأقانيم بذات عيسى إلى ثلاثة مذاهب : مذهب الملْكانية وهو الجاثلقية (الكاثوليك) ، ومذهب النّسطورية ، ومذهب اليعقوبية . ينظر : م . ن : ٥٦/٦-٥٧ ، ١٥٣/٦ .

٣ – المائدة : ٧٢ .

٤ – المائدة : ١٧ .

باسم الجلالة جعل القائلون اسم الجلالة المسند إليه، واسم عيسى المسند ليدلوا على أن الله اتحد بذات المسيح "[1].

كما يرجّع أصل ادعائهم ألوهية عيسى إلى قولهم بالأقانيم الثلاثة فيضيف : " إذ سرى لهم القول باتحاد اللاهوت بناسوت عيسى إلى حد أن اعتقدوا أن الله سبحانه قد اتحد بعيسى وامتزج وجود الله بوجود عيسى ، وهذا مبالغة في اعتقاد الحلول ، وللنصارى في تصوير هذا الحلول أو الاتحاد أصل ، وهو أن الله تعالى جوهر واحد ، هو مجموع ثلاثة أقانيم ... وهذه الثلاثة أقنوم الذات ، وأقنوم العلم ، وأقنوم الحياة "[2]

وتأكيدا على تفرده عز وجل بالوحدانية يقول : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[3] ، فيبين ابن عاشور قوله : " ﴿ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ يفيد حصر وصف الإلهية في واحد فانتفى التثليث المحكي عنهم ، وأما تعيين هذا الواحد مَن هو ؟ فليس مقصودا تعيينه هنا لأن القصد إبطال عقيدة التثليث فإذا بطل التثليث ، وثبتت الوحدانية تعين أن هذا الواحد هو الله تعالى لأنه متفق على إلهيته ، فلما بطلت إلهية غيره معه تمحّضت الإلهية له "[4] .

وفي الآيات التي نزلت في مجادلة وفد نجران وصُدّرت بإبطال عقيدتهم في إلاهية المسيح والإشارة إلى أوصاف الإله الحقة يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا

---

[1] – التحرير والتنوير : ٦/١٥١-١٥٣ .

[2] – التحرير والتنوير : ٦/١٥٣ .

[3] – المائدة : ٧٣ .

[4] – التحرير والتنوير : ٦/٢٨٣ .

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [1] ، فيقول ابن عاشور : " توجه الكلام هنا إلى إزالة شبهتهم في شأن زعمهم اعتراف نصوص القرآن بإلهية المسيح ، إذ وُصف فيها بأنه روح الله ، وأنه يحي الموتى وأنه كلمة الله ، وغير ذلك فنودي عليهم بأن ماتعلّقوا به تعلق اشتباه وسوء تأويل " [2] .

ويضيف : " ويقصد من قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ التعريض بنصارى نجران ؛ إذ ألزموا المسلمين بأنّ القرآن يشهد لكون الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير المتكلم ومعه غيره من نحو خلقنا وأمرنا وقضينا ، وزعموا أن ذلك الضمير له وعيسى ومريم ولاشك أنّ هذا -إن صح عنهم- هو تمويه ؛ إذ من المعروف أن في ذلك الضمير طريقتين مشهورتين إما إرادة التشريك أو إرادة التعظيم فما أرادوا من استدلالهم هذا إلا التمويه على عامة الناس " [3] .

وفي نقض شبهة البنوة عند النصارى في أن المسيح ابن الله ينطلق من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [4] فيقول : " وقوله ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ إظهار لغلطهم في أفهامهم ، وفي طريق إطلاقاتهم لفظ الأب والابن كيفما كان محلّهما لأنهما إما ضلالة وإما إيهامها ، فكلمة

---

١ - آل عمران : ٧ .

٢ - التحرير والتنوير :١٥٣/٣ .

٣ - التحرير والتنوير :١٦٣/٣ .

٤ - النساء : ١٧١ .

(سبحانه) تفيد قوة التنزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد ، والدلالة على غلط مثبتيه ، فإن الإلهية تنافي الكون أبا واتخاذ ابن ، لاستحالة الفناء ، والاحتياج ، والانفصال ، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى ، والبنوة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأن النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع ، والناس يتطلبونها لذلك ، وللإعانة على لوازم الحياة ، وفيها انفصال المولود عن أبيه ، وفيها أنّ الابن مماثل لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة " [1] .

وتأكيد لنبوة عيسى ونفي لألوهيته أو ألوهية أمه يقول تعالى : ﴿ مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ [2] ، ففي هذه الآية استدلال على أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها ، وهي الإلهية ، وعلى بشريتهما هو وأمه بأنهما يأكلان الطعام ، ولهذا يرجع ابن عاشور إلى أساليب العربية لاستخراج الحجج التي جاء بها القرآن على بشرية عيسى ومساواته لبقية الرسل الآخرين الذين مضوا قبله " وأنه ليس بدعا في هذا الوصف ولا هو مختص فيه بخصوصية لم تكن لغيره في وصف الرسالة ، فلا شبهة للذين ادعوا له الإلهية، إذ لم يجئ بشيء زائد على ما جاءت به الرسل ، وما جرت على يديه إلاّ معجزات كما جرت على أيدي رُسل قبله، وإن اختلفت صفاتها فقد تساوت في أنها خوارق عادات وليس بعضها بأعجب من بعض ، فما كان إحياؤه الموتى بحقيق أن يوهم إلهيته ، وفي هذا نداء على غباوة

---

[1] – التحرير والتنوير : ٥٨/٦ .

[2] – المائدة : ٧٥ .

القوم الذين استدلوا على إلهيته بأنه أحيا الموتى من الحيوان فإن موسى أحيا العصا وهي جماد فصارت حية "[1] .

أما السيدة مريم أم عيسى عليه السلام فقد حدّد القرآن منزلتها بأنها (صدّيقة) ويقول ابن عاشور في ذلك : " والقصد من وصفها بأنها صدّيقة نفيُ أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، وهو وصف الإلهيّة ، لأن المقام لإبطال قول الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة ، إذْ جعلوا مريم الأقنوم الثالث ... والصدّيقة صيغة مبالغة ... فالمعنى المبالغة في وصفها بالصدق ، أي صدق وعد ربها... وقيل : أريد هنا وصفها بالمبالغة بالتصديق لقوله تعالى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾[2] "[3] .

ولإثبات بشريتهما وتأكيد هذا الأمر يرجع إلى الأناجيل نفسها ويقول : " وإنما اختيرت هذه الصفة من بين صفات كثيرة لأنها ظاهرة واضحة للناس ، ولأنها أثبتتها الأناجيل ؛ فقد أثبتت أن مريم أكلت ثمر النخلة حين مخاضها وأن عيسى أكل مع الحواريين يوم الفِصْح خبزا وشرب خمرا ، وفي إنجيل لوقا إصحاح ٢٢ (وقال لهم اشتهيت أن آكل هذا الفِصح معكم قبل أن أتألم لأنّي لا آكل منه بعدُ ، وفي الصبح إذْ كان راجعا في المدينة جاع) "[4]

- تحريف الكتب السماوية :

وابن عاشور تعرض في مؤلفاته للكتب السماوية المحرّفة ، مبديا رأيه حول مايعتريها من زيف وبطلان وتحريف ، فهو يرجع إلى استخراج مدلول

---

١ – التحرير والتنوير : ٦/٢٨٥ .

٢ – التحريم : ١٢ .

٣ – التحرير والتنوير : ٦/٢٨٥-٢٨٦ .

٤ – م . ن : ٦/٢٨٦ .

الكلمات ، وتحديد معاني الجمل إذ يجعل المبدأ الأول للتعامل مع القرآن هو الرجوع إلى العربية ، ويتضح ذلك جليا من خلال تفسيره للآيات القرآنية التالية فعند قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [1] يقول : " والويل لفظ دال على الشر والهلاك ، وذكر ﴿ بأيديهم ﴾ القصد منه تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها وأنهم في ذلك عامدون قاصدون ، وقوله ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ ... والثمن المقصود هنا هو إرضاء العامة بأن غيّروا لهم أحكام الدين على مايوافق أهواءهم أو انتحال العلم لأنفسهم مع أنهم جاهلون فوضعوا كتباً تافهة من القصص والمعلومات البسيطة ليتفقهوا بها في المجامع لأنهم لما لم تصل عقولهم إلى العلم الصحيح وكانوا قد أطعموا في التصدر والرئاسة الكاذبة لفّقوا نتفا سطحية وجمعوا موضوعات وفراغات لا تثبت على محك العلم الصحيح ثم أشاعوها ونسبوها إلى الله ودينه وهذه شنشنة الجهلة المتطلعين إلى الرئاسة عن غير أهلية ليظهروا في صور العلماء لدى أنظار العامة ومن لا يميز بين الشحم والورم " [2]

ويدعم رأيه فيستند لآراء العلماء والباحثين من الإفرنج فيقول : " ولهذا اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشي وأنهم لما جمعوا أمرهم عقب بعض مصائبهم الكبرى افتقدوا التوراة فأرادوا أن يجمعوها من متفرق أوراقهم وبقايا مكاتبهم

---

[1] – البقرة : ٧٩ .

[2] – التحرير والتنوير : ١/٥٧٧ .

، وقد قال (لنجرك) أحد اللاهوتيين من علماء الإفرنج أن سفر التثنية كتبه يهودي كان مقيما بمصر في عهد الملك يوشيا ملك اليهود وقال غيره إن الكتب الخمسة التي هي مجموع التوراة قد دخل فيها تحريف كثير من علم صموئيل أو عزير (عزرا) "[1] .

كما يضيف رأي علماء المسلمين فيقول : " ويذكر علماؤنا أن اليهود إنما قالوا عزيرا ابن الله لأنه ادعى أنه ظفر بالتوراة . وكل ذلك يدل على أن التوراة قد تلاشت وتمزقت والموجود في سفر الملوك الثاني من كتبهم في الإصحاح الحادي والعشرين أنهم بينما كانوا بصدد ترميم بيت المقدس في زمن يوشيا ملك يهوذا ادعى حلقيا الكاهن أنه وجد سفر الشريعة في بيت الرب وسلمه الكاهن لكاتب الملك فلما قرأه الكاتب على الملك مزق ثيابه وتاب من ارتداده عن الشريعة وأمر الكهنة بإقامة كلام الشريعة المكتوب في السفر الذي وجده حلقيا الكاهن في بيت الرب أهـ . فهذا دليل على أن التوراة كانت مجهولة عندهم من زمان "[2] .

ويحدد معنى التحريف في قوله تعالى :﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[3] فيقول : " والتحريف : الميل بالشيء وحافته ، وهو هنا مستعمل في الميل عن سواء المعنى وصريحه إلى التأويل الباطل ، كما يقال : تنكّب عن الصراط ، وعن الطريق ، إذا أخطأ الصواب وصار إلى سوء الفهم أو التضليل ، فهو على هذا تحريف مراد الله في التوراة إلى تأويلات باطلة ، كما يفعل أهل الأهواء في تحريف معاني القرآن بالتأويلات الفاسدة ،

---

١ – م . ن : ١/٥٧٨ .

٢ – م . ن : ١/٥٧٨ .

٣ – النساء : ٤٦ .

ويجوز أن يكون التحريف مشتقا من الحرف وهو الكلمة والكتابة ، فيكـون مرادا به تغيير كلمات التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتُوافق أهل الشـهوات في تأييد ماهم عليه من فاسد الأعمال ، والظاهر أن كلا الأمرين قد ارتكبـه اليهود في كتابهم " [1] .

ويضيف موضحا في قوله عز وجل : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّـاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِـهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [2] ، " والتحريف : الميل بالشيء إلى الحرف ، والحرف هو الجانب ...، أي يعدلون بالكلم النبويّة عن مواضعها فيسيرون بهـا فـي غير مسالكها ، وهو تبديل معاني كتبهم السماوية ، وهذا التحريـف يكـون غالبا بسوء التأويل اتّباعا للهوى ، ويكون بكتمان أحكام كثيرة مجاراة لأهواء العامة ، قيل : ويكون بتبديل ألفاظ كتبهم " [3] .

وفي إقامة تشريعات التوراة والإنجيل يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [4] ، يبيّن معنى هذه الآيـة معتمداً على البيان العربي في تفسيره للألفاظ والمعاني إذ يقـول : " إقامـة الشيء جعلُه قائما ، واستعيرت الإقامة لعدم الإضاعة لأن الشيء المضـاع يكون مُلْقى ... فيجوز أن يكون معنى إقامة التوراة والإنجيل إقامة تشريعهما

---

١ – التحرير والتنوير : ٧٥/٥ .

٢ – المائدة : ١٣ .

٣ – التحرير والتنوير : ١٤٣/٦ .

٤ – المائدة : ٦٦ .

قبل الإسلام ، أي لو أطاعوا أوامر الله وعملوا بها سلموا من غَضَبه فلأغْدَق عليهم نعمه ، فاليهود آمنوا بالتوراة ولم يقيموا أحكامها ، وكفروا بالإنجيل ورفضوه ، وذلك أشدّ في عدم إقامته ، وبالقرآن ، وقد أوْمأت الآية إلى أن سبب ضيق معاش اليهود هو غضب من الله تعالى عليهم لإضاعتهم التوراة وكفرهم بالإنجيل وبالقرآن ، أي فتحتمت عليهم النقمة بعد نزول القرآن "[1] .

وفي بيان موقف اليهود والنصارى من إقامة الأحكام في الآية الكريمة : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2] ، يقول : " والمقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً ؛ فأما اليهود فلأنهم مأمورون بإقامة الأحكام التي لم تنسخ من التوراة وبالإيمان بالإنجيل إلى زمن البعثة المحمدية ، وبإقامة أحكام القرآن المهيمن على الكتاب كله ، وأما النصارى فلأنهم أعرضوا عن بشارات الإنجيل بمجيء الرسول من بعد عيسى -عليهما السلام- ... والمقصود من الآية إنما هو إقامة التوراة والإنجيل عند مجيء القرآن بالاعتراف بما في التوراة والإنجيل من التبشير بمحمد ﷺ حتى يؤمنوا به وبما أنزل عليه ، وقد أوْمأت هذه الآية إلى توغل اليهود في مجانية الهدى لأنهم قد عطّلوا إقامة التوراة منذ عصور قبل عيسى ، وعطلوا إقامة الإنجيل إذ أنكروه ، وأنكروا من جاء به ثم أنكروا نبوءة محمد ﷺ فلم يقيموا ما أنزل إليهم من ربهم "[3] .

---

١ – التحرير والتنوير : ٦/٢٥٣ .

٢ – المائدة : ٦٨ .

٣ – التحرير والتنوير : ٦/٢٦٥-٢٦٦ .

يقول أحد الباحثين مبديا رأيه في تحريف التوراة : " وفي إصـحاحات العهد القديم يختلط الحق بالباطل ، وتنال الأسطورة مما بقي من أثر للوحي ، وفيما يتعلق بقضية الألوهية تتعدد الصور التي قدمت فيها هذه القضية فـي هذه الإصحاحات ، والله واحد بصفات كماله كما تقدمه لنا نصوص القرآن ، ليس هو هذا الإله الذي تبديه تلك الإصحاحات في صورة مهزوزة لا تكـاد تستقر على حال ولا يوجد لها كمال . مما يوحي بالصنعة والاختلاق في هذه الإصحاحات ، وبهذا الاعتبار فلا يتأتى أن يُعتبر العهد القديم هـذا وحيـا و يتأتى كذلك أن تعتبر اليهودية بهذه الحال رسالة إلهية " [1] .

ويستمر في إبداء رأيه فيما يتعلق بالأناجيل فيقول : " أما فـي أناجيـل العهد الجديد فقد حصل خلط عجيب في أمر العقيدة وانتهى أمر التوحيد فيها إلى مركب ثلاثي لا نكاد نتبين عناصره أو نحدد مراتبها وطبائعها والعلاقـة التي تربطها ، وإذا قيل أن موضوع العقيدة كما قررتـه وأقرتـه المجـامع الكنسية خارج عن دائرة العقل أو حسب المصطلح المسيحي إنه أمر فـائق للطبيعة . قلنا : قد يكون ولكن ما ظنكم بحكم على العقيدة ليس مصدره العقل القاصر ، وإنما مصدره الله ذو الجلال والكمال ؟ " [2] .

الخاتمـــة :

لقد سلك ابن عاشور في نقد الأديان مسلكا يجلي عقائد الإسلام وينتصر لها من غير أن

---

[1] – منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد ، أحمد محمد رحومـة ، ليبيـا ، طرابلس ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط١ ، ١٩٨٩م : ص١٠– ١١ التقديم .

[2] – منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد : ص ١١ التقديم .

يطمس الحقائق الدينية الأخرى مما لا يتناقض في ظاهره وجوهره مع أصول الإسلام ، ففي تفسيره للآيات التي تعرضت لعقيدة اليهود والنصارى يرجع إلى التوراة والإنجيل ، وهذا الرجوع إلى الأناجيل كان يهدف منه إلى تتبع التطور التاريخي الذي حدث في العقيدة ، ولكن يؤخذ عليه أنه يعتمد أحيانا على قول اليهود وينقل كثيرا عن أساطير اليونان ، ومع كل هذا فهو يقرر أن الدين الإسلامي ليس جملة من الأحكام والتشريعات والاعتقادات ، بل هو دين تنطوي عقائده الدينية وأحكامه التشريعية على ما هو خير ممّا جاءت به الأديان الأخرى.

فهرس المصادر والمراجع

أ – المصادر العربية :

(١)- أصول النظام الاجتماعي في الاسلام ، ابن عاشور ، الدار العربية للكتاب والشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٧م .

(٢)- الله واحد أم ثالوث ، محمد مجدي مرجان ، القاهرة ، دار النهضة العربية .

(٣)- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، تونس ، ١٩٨٤م .

(٤)- تراجم التونسيين ، محمد محفوظ ، بيروت دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٨٤م .

(٥)- التوراة بين الوثنية والتوحيد ، سهيل ديب ، دار النفائس ، ط١ ،١٩٨١م .

(٦)- حول موثوقية الأناجيل والتوراة ، محمد السعدي ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط١ ١٠٨٦م .

(٧)- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، موريس بوكـاي ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٧٧م

(٨)- معجم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصـر الحاضـر ، عـادل نويهض ، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، ط١ ، ١٩٨٤م .

(٩)- الملل والنحل ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني ، بيروت ، دار المعرفة .

(١٠)- منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد ، أحمد محمد رحومة ، ليبيا ، طرابلس ، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط١ ، ١٩٨٩م .

ب- المصادر الأجنبية :

(١)- الموسوعة البريطانية, Incyclopaedia Britannica –fifteenth, edition -1983

(٢)- – The Jerusalem bible –darton Longman and todd london 1974-11